مقدمة

أحزن المرأة أن تقبع في دارها والرجال وحدهم في ميدان الفداء يبتغون الشهادة لنيل رضوان الله.. سرت فيها روح الغيرة من شقائقها الرجال الذين فرض عليهم الجهاد والقتال.. ونزل بشأنهم آيات من الذكر الحكيم تؤكد فضل المجاهد، ومكانة الشهيد.

قال تعالى: ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾[1]، ويقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾[2].

ورسول الله ﷺ حين سئل عن أفضل الناس، قال: «**مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى**»[3].

وانطلقت نقيبة النساء ـ عائشة رضي الله عنها ـ تعبّر عن لسان حالنا.. تتحدث بما يدور بخاطري الآن وبعد أربعة عشر قرناً، وجلست إلى رسول الله ﷺ تسأله، وتصيخ إليه، كي ندرك ونعلم، ونعمل بما نعلم.. قالت عائشة رضي الله عنها: «يا رسول الله نرى الجهاد أفضل الأعمال.. أفلا نجاهد؟» فقال ﷺ: «**لَكنَّ أفضل الجهاد حج مبرور**». ثم أعادت السؤال علّها تدرك جواباً مؤكداً كي تهنأ بهذه المساواة.. فقالت رضي الله عنها: «يا رسول الله هل على النساء من جهاد؟» فقال ﷺ: «**عليهن جهاد لا قتال فيه الحج والعمرة**»[4].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٤.

(٢) سورة الصف، الآيات: ١٠ـ ١٢.

(٣) رواه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإمارة ٣/ ١٥٠٣.

(٤) رواه أحمد في مسنده ٦/ ١٦٥.

وها هي أم معقل الصحابية.. تروي أمراً يؤكد مكرمة النساء.. قالت: «لما حج رسول الله ﷺ حجة الوداع، كان لنا جمل فجعله أبو معقل في سبيل الله، وأصابنا مرض، وهلك أبو معقل، وخرج النبي ﷺ فلما فرغ من حجه جئته فقال: «**يا أم معقل، ما منعك أن تخرجي معنا؟**» قالت: لقد تهيأنا فهلك أبو معقل، وكان لنا جمل هو الذي نحج عليه، فأوصى به أبو معقل في سبيل الله، قال رسول الله ﷺ: «**فهلّا خرجت عليه؛ فإن الحج في سبيل الله، فأمّا إذا فاتتك هذه الحجة معنا فاعتمري في رمضان فإنها كحجة**»[(١)].

وبمقتضى هذا الحكم جمعت المرأة بين الحسنيين، فريضة الحج، وفريضة الجهاد، لتنال ثوابهما معاً، إن اهتدت بهدي الله، وترسمت شريعته متبعة تعاليم دينا الحنيف، فتؤدي مناسك الحج على خير وجه.

وقد آثرت هنا أن أقدم رحلة الجهاد لأختي في الله مستجلية حكم الله في كل جزئية منها ما استطعت، مستضيئة بالقبس الساطع المتمثل في الكتاب والسنة المطهرة، وآراء أئمة المذاهب في ذلك. ولم أخاطب المرأة كما خاطبها شقائقي من الرجال باعتبارها مناط تكليف فحسب ـ هذا ما لها، وذاك ما عليها ـ بل جعلت لها موضعها الذي أكرمها الله به.. في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[(٢)].

فخاطبت فيها فكراً متأجّجاً، وروحاً ظمأى، وعقلاً بكراً لم يوهن بفعل الزمن، ولم ينضب معينه، إذ لم تكشف بعد نفائسه.

لذا أعطيت نفسي حقاً آخر بأن أنطلق إلى سفرة عبر الزمن الغابر، كي أتعرف على أصل هذه الفريضة التي جعلها الله مكملة لبناء الإسلام، ومتممة لإسلام المسلم.

ووقفت على أول الطريق حين رأيت اللافتة النورانية.. تقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[(٣)].

---

(١) رواه أبو داود في سننه كتاب المناسك ٢/ ٢٠٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

أجل من هنا أبدأ رحلتي عبر الزمن.. ورحت في سفرتي أنقب وأفتش فلم أجد منعطفاً إلا ودلفت إليه وكلما خلت أنني بلغت مأربي أجد نفسي عند معبري الأول، وأخيراً انتهيت إلى أن البيت أصل من أصول الحياة على هذا الكوكب، جعله الله مرفأ لآدم الذي حرم الجوار في السمٰوات العلا.. بعدما اغتسلت الأرض بِهَتَّان ندمه وتوبته، جعله الله له ولذريته من بعده ليكون مركز إرسال متصل لخلائق ترجو مغفرة من رب رحيم يقبل توبة التائبين، وهو أيضاً مركز قيادة روحية يتوجه إليه الناس من كل فج عميق تارة بالأبدان وفي وقت معلوم، وزمن مرقوم، وتارة بالأرواح والأفئدة عبر شَفْرة وجدانية تتوهج إبان صلوات تقام أطراف النهار وزلفاً من الليل.

ولم أشأ أن أتعرف على معمر هذا البيت ومجدد أروقته، فرأيت المرأة في أبهى حللها وأكمل زينتها المعنوية تقف وراء إبراهيم الخليل الزوج. وكانت رحلتي الأولى عبر التاريخ.. وقادتني رحلتي في أعمال الماضي البعيد الموصول بالحاضر الممتد إلى قمة التأمل فأشعلت الضوء الأخضر كي أرى - بروح المحب - قبساً من أسرار التشريع، واصلاً إلى روح العبادة.

وبالحضور الوجداني وحده تدرك المعاني، وتتكشف الأسرار، فوجدت نموذجاً يفيض بالعبر لرحلة الحياة والموت، ورحلات أخر امتد إليها قطاري الزاحف على قضبان فكري.

ثم عدت إليك يا أختاه، لأعدّ لك زادك، وأهيىء لك أسباب ترحالكَ، وأضع بين يديك حل كل قضية قد تشغل ذهنك، وتقض مضجعك، وتجعلك في شك من تمام عبادتك، وذلك من خلال عرض مفصل لرحلة التكليف مع عرض آراء الفقهاء في كل قضية فيها.

لعلي أكون بذلك قد وفيت شيئاً يسيراً تجاه المنعم الذي حبانا بوافر نعمه كل الخير.

الدكتورة عبلة محمد الكحلاوي